

«العلماء»

من الدراسات التاريخية إلى الدراسات الاستراتيجية

أبوبكر باقادر

أسعى في هذه الورقة إلى تتبع وعرض أهم ما كتب عن العلماء المسلمين في سياق الحياة الثقافية والفكرية في المجتمعات الإسلامية كما تقدمه بعض الدراسات الغربية التي عנית بدراسة الحياة الاجتماعية والثقافية في المدن الإسلامية، وبالذات في القرون الأربعة الأخيرة: السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والعشرين. والمتبع لهذه الدراسات - كما سنفصل - يلاحظ تنوعاً وتطوراً في هذا الاهتمام كما يركز بشكل أساسي على الجوانب التاريخية من حياة هؤلاء العلماء، لكنه شهد تحولاً مهماً في العقدين الأخيرين حيث بدأت في الظهور دراسات أنثروبولوجية تعتمد البحوث الميدانية لمتابعة علماء «أحياء» يقومون بأدوارهم التقليدية بالإضافة إلى أدوار جديدة. ونظراً لأن هذه الدراسات - رغم أهميتها - لا يوجد ما يقابلها بالعربية فإننا سنسعى لتقديمها على أمل أن تستنهض دراسات مماثلة أوسع من طرف العلماء العرب⁽¹⁾.

وبدايةً ربما من المهم أن نبدأ من محاولة تحليل ودراسة ما يقصد بلفظ

(1) انظر لتكوين فكرة عما يهتم به بعض الدارسين للعلماء ودورهم:

Abubaker A. Bagader, The Ulama in the Modern Muslim Nation-State, K.L. Malaysia: ABIM, 1983.

أما بالنسبة للمصادر العربية فإننا نادرًا ما نجد كتاباً أو دراسة أفردت لدراسة العلماء، ومما يؤسف له أن الاهتمام الغربي عموماً والإسرائيلي بالموضوع ومنذ وقت مبكر يجعلنا نتساءل لماذا لم نول نحن العرب والمسلمين أمثال هذه الموضوعات الاهتمام المطلوب؟

«عالم». يُطلق مفرد «عالم» في التراث العلمي في مجال الدراسات الإسلامية، على من تخصص في دراسة واحد أو أكثر من العلوم الشرعية، على أن يضاف إلى ذلك، في أغلب الأحيان، بعض التوضيحات مثل «فقيه» أو «متكلم» أو «أصولي» أو «مفسر» أو «نحوي»؛ وذلك لتحديد التخصص الذي برز فيه ذلك العالم. ورغم أن لفظ «عالم» قد يُطلق أحياناً على غير المختص في العلوم الشرعية في العصر الحديث مثل المشتغل في العلوم الطبيعية، ربما لأن اللقب يعطي دلالة بأن صاحب اللقب له معرفة أو اشتهر بإجادته في فرع علمي ما. ويطلق اللفظ أحياناً على بعض من يقومون ببعض الأدوار الدينية، دون أن يكونوا بالضرورة ممن لهم دراية واسعة أو متعمقة في مجال العلوم الشرعية، كأن يكون من خطباء بعض المساجد أو الوعاظ أو معلمي القرآن ونحو ذلك⁽¹⁾.

ويُطلق إضافة إلى لفظ «عالم» لفظ «شيخ» أيضاً وهي لفظة وإن ارتبطت بالعمر، وربما قصد ضمناً أم من عُمر طويلاً اكتسب خبرةً ودرايةً وعلماً. لذا فإنَّ الحكمة تؤخذ عن «الشيخ»، وقد توسع البعض في تحديد بعض الرتب والألقاب المحددة لدرجة ومكانة المشار إليه العلمية، ولعل ذلك أوضح ما يكون في الأنظمة الدراسية التقليدية في المعاهد الدينية والمساجد والجامعات وحلقات الدرس والحوزات الدراسية عند علماء الشيعة، والذين تضاف إليهم ألقاب ودرجات علمية توضح ما نرمي إليه بشكل تفصيلي⁽²⁾.

وللعلماء اجتماعياً أدوار مختلفة يعرفون بها وتعد محدداً لنشاطاتهم المعرفية والاجتماعية الثقافية، ولعل من أهمها: دور المعلم والقاضي وإمام وخطيب الجامع والمفتي ورجل المجتمع المرموق وغيرها. ويلعب العلماء

(1) يفرق العديد من العلماء الذين يفضلون أن يكونوا على مستوى علمي رفيع بين الخطباء ومدرسي المدارس القرآنية الذين لا يشترط أن يكونوا على مستوى ديني رفيع.

(2) مثل لقب حجة الإسلام، وآية الله، وفوق السطوح وخلافه، على أن النظام التعليمي السني كان قد عرف نظام الإجازات وحتى الشهادات الحديثة في المعاهد الدينية كالأزهر والزيتونة والقرويين وخلافه.

بسبب هذه الأدوار المتعددة وظائف مهمة في حياة المجتمع الذي يعيشون فيه، فهم يشكلون بالضرورة «طبقة» اجتماعية تعد تقليدياً من أعيان المدينة التي يقطنون فيها، إما بسبب المناصب والرتب الإدارية التي يحتلونها: قاضي/ مفتي/ ناظر وقف/ مرشد ومعلم في البلاط ونحو ذلك أو بوصفهم شخصيات ذات تأثير كبير في تشكيل الرأي العام، تستمع لها وتثق بها شريحة عريضة من أفراد المجتمع. ولما كان العلماء في الغالب يعملون ويتكئون داخل مؤسسات وروابط معينة، فإنهم يشكلون ما عرف بشبكات العلماء وهي شبكات تقوي وتعزز مكانتهم على المستويين الاجتماعي والسياسي، فمن خلال المكانة والسمعة التي يحتلها العالم بين أقرانه من المشتغلين بالعلوم الشرعية - رغم ما قد يقع من تنافس بينهم - ومكانتهم عند الجمهور الذي يستقبل آراءهم وفتاواهم ويعتقد في صوابية أفكارهم. وفي هذين البعدين تكمن المنزلة الرفيعة والتقدير والاحترام الجماهيري الذي يحظى به العلماء، والذي يكفل لهم نوعاً من الاستقلالية والسند الاجتماعي السياسي⁽¹⁾. ولعل وضع علماء الشيعة «الإثني عشرية» الكبار أن يكون مثلاً واضحاً لما نقصده. فبسبب تقليد جمهور المؤمنين لهم وتسليمهم الخمس، ما يضمن لهم ليس فقط قاعدة جماهيرية واسعة تدافع عنهم عند مواجهة السلطات لهم ومن ثم تحفظ لهم مكانة مرموقة تحسب حسابات كثيرة لها السلطة الزمانية، وإنما في الوقت نفسه يكفل ذلك لهم استقلالاً مالياً يمكّنهم من الاستغناء عن الاعتماد على الحكومة وسلطتها⁽²⁾. وكان علماء السنة كذلك كما توضح ذلك العديد من كتب تواريخ المدن الإسلامية، مما يؤكد دعم الجماهير وقبولهم الواسع لهؤلاء العلماء بما ضمن لهم القدرة على الجهر بآرائهم، حتى وإن تعارضت مع ما عليه سياسة البلاد. ولعل في قضية أحمد بن حنبل والنزاع الدموي مع السلطة

(1) انظر كتاب أبو بكر باقادر مرجع سابق، مقالة Hamid Algar, «The Opposition and role of The Ulama in 20th Century Iran», pp. 211-238.

(2) يرى علي الوردي أن هذا جعلهم في الوقت نفسه تحت سيطرة الجماهير وأهوائها في بعض الأحيان بحيث لا يمارس العالم خوفاً من فقدان جمهوره العريض انتقادات حاسمة لبعض ممارساتهم «الشعائرية» كالصيام في عاشوراء وما يشبه ذلك!

من طرف الجماهير دليلاً على ذلك⁽¹⁾. وقد لعبت الأوقاف والحبوس دوراً بارزاً في ضمان استقلال المؤسسات التعليمية وغيرها مما سمح للعديد من العلماء التمتع بحياة طيبة واستقلال فكري⁽²⁾.

إن مسألة القبول من طرف «أفراد الأمة» أو جمهور المسلمين إنما تشكل نوعاً من المميزات التي تؤكد على ضرورة أن يكون العالم صاحب رأي وأنه قادر على الجهر به ولديه القدرة على الإقناع ومن ثم القبول من طرف الجماهير، وهذا أمر لا يمكن أن يتحقق سوى لصفوة من العلماء، إضافة إلى أنه أمر مكتسب لا يرثه العالم، مما يعني أن مبدأ الكفاءة العلمية والنزاهة الفكرية والسلوكية كانت، ولا تزال، المعيار الرئيسي في جعل «العالم» مقبولاً، ويحظى بثقة من الجماهير التي تؤيده، وتحثي بآرائه.

إنّ من تمكّن من تحقيق ذلك من العلماء تمكّنوا من الاتصال بأصحاب السلطة والمكانة السياسية انطلاقاً من أنهم يمثلون شجون وشؤون وظروف الجماهير، ومن ثم يملكون حق الحديث عنهم والمطالبة بتخفيف معاناتهم ورفع الضيم والظلم، والتوسط لهم واستخدام وجاهتهم لحل مشاكل الناس الحياتية اليومية وما يعانون منه. وما قام به علماء السنة في العديد من المواقف السياسية مشهود ومعروف ولعل دورهم هذا في المدن الإسلامية كان يشكل الجزء الأهم والأبرز في الحياة الحضريّة المسلمة⁽³⁾.

ولكن لما كان علماء السنة - على وجه الخصوص - يؤمنون بأهمية قيام

(1) انظر ما قدمه جورج مقدسي حول ذلك من آراء في كتابه عن النزعة الإنسانية في الإسلام وكذلك فهمي جدعان، الفتنة، عمان: دار الشروق، 1992.

(2) انظر على سبيل المثال: Richard van Leuwen, Waqfs and Urban Structures, The Case of Ottoman Damascus, Leiden: E.J. Brill, 1999.

(3) انظر على سبيل المثال: Ira Lapidus, A History of Islamic Societies, Cambridge: Cambridge University Press, 1989، وما كتبه عن المدن في العصر المملوكي أيضاً وما كتبه غيره كثير.

النظام وضرورة وجود السلطة التي تؤمّن تطبيق الشريعة الإسلامية، وتحقيق العدل ورفع الظلم والجور ولو نسبياً، فهذه الأمور هي من مستلزمات الاستقرار واستمرار الحياة الاجتماعية، لذا فإنهم يميلون إلى عدم معارضة السلطة، ويتجنبون إشاعة الفوضى في حياة الناس بسبب ما يمكن أن تتركه من مفسدات كبيرة، لكل هذا شددوا على إعطاء الشرعية للسلطة القائمة ما دامت لم تعلن خروجها على الشريعة أو تأمر بمنكر صريح، حتى وإن كانت في بعض الأحيان ظالمة أو متجبرة⁽¹⁾. وعمل العديد من العلماء على تشجيع الجماهير على قبول السلطة القائمة، بل شارك العديد منهم في العمل في العديد من إداراتها ونصروا الحاكم من أجل تحقيق دور متوازن ووساطة مقبولة بينه وبين الجماهير من شأنها أن تجعل الحياة الحضرية أكثر قبولاً واستقراراً، والدارس للحياة الحضرية في المدينة العربية المسلمة التقليدية يلاحظ وجوداً وحضوراً مكثفاً و متميزاً للعلماء في الحياة الحضرية⁽²⁾.

ورغم أن العلماء ليسوا برجال دين بالمعنى الحضري للكلمة كالذي نجده في معظم الأديان، فهم مجموعة من المختصين والعارفين بالعلوم الشرعية - كما أوضحنا - إلا أن العديد من المناصب الهامة أصبحت مناصب «دينية» مثل: المفتي وشيخ الإسلام وقاضي القضاة والقاضي وخطيب الجامع وخلافه⁽³⁾. ونظراً لأهمية وحساسية هذه المناصب فإنها أصبحت في بعض الأحيان محتكرة في بعض الأسر أو في بعض المجموعات الاجتماعية، على أن السواد الأعظم

(1) للسنة موقف مهم إزاء أهمية استمرار السلطة وعدم انتشار الفوضى، لكن على عكسهم موقف العلماء الشيعة الذين غالباً لا يوالون أي حكومة أو سلطة زمانية لإيمانهم بالإمام الغائب وأنه هو المخول الشرعي الوحيد بذلك، مما جعلهم يلعبون دور المعارض دائماً، انظر ما قدمه فؤاد إسحاق الخوري: إمامة الشهيد وإمامة البطل، بيروت.

(2) انظر لابييدوس وكذلك، Albert Hourani, A History of The Arab Peoples, Harvard University Press, 1991، وبالذات الفصل السادس.

(3) انظر على سبيل المثال دراسة: R.C. Repp, The Mufti of Istanbul, London: Ithaca Press, 1989.

من جمهور العلماء هم من جمهور المسلمين ومن أوساطهم⁽¹⁾.

كذلك لا يشكل «العلماء» بالمعنى الدقيق للكلمة المجموعة أو الجماعة الوحيدة المهيمنة في المجال الروحي، فهناك الصوفية والأولياء والصلحاء وبعض الوعاظ الشعبيين والمشعوذين وخلافه ممن لهم تأثير كبير على قطاعات اجتماعية واسعة، تقوم سلطتهم على فكرة أن لهم قوى روحية خارقة وتأثيراً كبيراً على حياة من حولهم. ورغم وقوع بعض الخلط أحياناً بين هؤلاء والعلماء، إلا أن هذه الفئة غالباً ما تكون مستبعدة عنهم، ذلك لأن العلماء دائماً ما يكونون من القراء المطلعين على المتون ومن ثم غالباً ما يكون تركيزهم على النصوص والشروح وليس على علم لدني أو خارق، إضافة إلى وجود ضوابط مادية في شكل «إجازات» أو اختبارات تضمن اجتياز حدود علمية معينة، بمعنى أن ما يفرّق العلماء عن أصحاب القدرات الروحية أو الزهدية هو «العلم» التقليدي وإجاداته. ورغم أن للعديد من المتصوفة والأولياء والصلحاء نفوذاً وتأثيراً واسعاً على الجماهير، ولعب بعضهم أدواراً سياسية بارزة وكانت مواقف بعضهم مهمة جداً في حياة المجتمع، إلا أن بعضهم أيضاً كانت لهم تأثيرات سلبية بل وخطيرة على المجتمعات المسلمة⁽²⁾.

ولقد قام العديد من العلماء، خاصة في الفترة الاستعمارية، بقيادة النضال الوطني للتحرّر من نير الاستعمار والعمل على الاستقلال، مما جعل العديد منهم يشكلون قيادات «سياسية» بالمعنى الواسع للكلمة⁽³⁾، إضافة إلى

(1) انظر بالنسبة للعلماء من عليّة القوم ما كتبت عنه Judith Tucker, In the House of the Law: Gender and Islamic law in Ottoman Syria and Palestine, University of California Press, 1998.

(2) لعب بعض العلماء والصوفية وهم حالات شاذة جداً أدواراً تواطأوا فيها مع السلطات الاستعمارية مما زاد من تكييل مجتمعاتهم بالمزيد من الظلم والعت.

(3) In Bagader, op. cit., «Activism of the Ulama in Pakistan», Aziz Ahmad «Political Attitudes and Activities of the Ulama in the Liberal age: Tunisia as an exceptional case» A. Green: at «The Revolutionary character of the Iranian Ulama - W. Floor. وغيرها.

أن العديد منهم أيضاً لعبوا أدواراً بارزة في استنهاض الهمم وتحقيق البعث والنهضة الحديثة التي كان يؤمل أن تدفع بالأمة إلى التقدم والرقى في العصر الحديث، ونقصد بذلك شخصيات من أمثال الشيخ محمد بن عبد الوهاب والدهلوي والطهطاوي وخير الدين التونسي ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني ورشيد رضا وغيرهم الكثير ممن لعبوا أدواراً مهمة في إحداث تحولات وتغيرات مهمة وواسعة في حياة مجتمعاتنا⁽¹⁾.

لكل هذه الأسباب انصبّ اهتمام العديد من الدارسين الغربيين على دراسة العلماء، ويمكننا إجمالاً القول بأن غالبية الدراسات كانت تعتمد على النظرات التاريخية للعلماء بوصفهم «طبقة» أو دراسة حياة عالم دراسة تفصيلية بوصفه يمثل نموذجاً لما عليه العالم في الإسلام أو دراسة وظائف وأعمال العلماء في الحياة الاجتماعية العامة. ولقد اعتمدت غالبية هذه الدراسات على كتب التراجم والطبقات وتواريخ المدن التي تزخر بها المكتبة الإسلامية بوصفها تشكل المادة العلمية الأولية التي يمكن أن تقوم عليها العديد من الدراسات.

ويمكننا إجمالاً تصنيف أهم القضايا التاريخية التي عالجتها هذه الدراسات على الشكل التالي:

1 - العلماء بوصفهم فئة اجتماعية من فئات الأعيان. والدارسون الذين قدموا دراسات من هذا النوع ركزوا على الخلفيات الأسرية وشبكة الصلات والعلاقات الاجتماعية ونوعية التعليم والآثار العلمية التي أنجزوها ومن ثم السعي لدراسة آثار هذه العوامل الثقافية - الاجتماعية لتحديد هوية العلماء إجمالاً داخل المجتمع المسلم التقليدي. وبطبيعة الحال من الواضح أن العلماء يشكلون «طبقة» اجتماعية غير متجانسة اجتماعياً وإنما يشكلون ما قدّمه

(1) لعب معظم هؤلاء العلماء وغيرهم كثيرون أدواراً عديدة مختلفة في حياة الأمة وتحديثها،

انظر مثلاً: In A. Bagader, op. cit., Levy, «The Ottoman Ulama and the Military»

Reforms of Sultan Mahmud II، وما كتب عن رواد النهضة الإسلامية.

مانهايم عن الأتليجانسيا من حيث إنهم طبقة متغيرة ماهرة ذات وعي بما يجري في المجتمع وتعمل على لعب أدوار شخصية مهمة في حياة المجتمع⁽¹⁾.

ولعل من أبرز الدراسات التي تناولت العلماء على هذه الشاكلة دراسات الخوري وشيلار ولابيدس⁽²⁾. ومن المهم توضيح أن ما تقدمه بعض هذه الدراسات ومنها دراسة تكرر⁽³⁾ عن احتفاظ بعض الأسر بمناصب دينية رفيعة إنما تشكل استثناءات وليس القاعدة التي سارت عليها الأمور في التراث الإسلامي.

2 - وظائف وأعمال العلماء العامة في الحياة الاجتماعية. والدراسات هنا تستقصي ما قام به العلماء من جهود في مجالات عديدة اجتماعية وسياسية وتعليمية وبالذات ما تعلق بالحفاظ على هوية وشكل المجتمع المسلم ممثلاً في مؤسساته الدينية والعامة، بمعنى أن هذه الدراسات اهتمت بدراسة جهود ونفوذ العلماء في السياسة العامة ولعل دراسة أرنولد جرين حول علماء تونس ودراسة جوليا كلنسي - سميث نماذج مهمة لمثل هذه الاتجاهات.

فجرين يقدم دراسة تاريخية للفترة ما بين 1873 و1915 موضحاً التدرج التاريخي للعلماء من القضايا التاريخية الملحة التي كان عليهم التصدي لها وهي موقفهم فيما بين 1873 - 1881 للإصلاحات الوطنية التي نادى بها خير الدين التونسي وغيره ثم مواجهتهم فيما بين 1881 - 1892 للمرحلة الأولى في

(1) انظر كارل مانهايم (ترجمة ديراوي)، الإيديولوجيا واليوتوبيا، الكويت: المكتبات الجامعية، 1982.

(2) بالنسبة للخوري انظر كتابه: الأعيان والنبلاء في بلاد الشام (مترجم)، بيروت: المؤسسة العربية للأبحاث 1989 وشيلار (مترجم)، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دمشق: مطبعة النجاح، 1997 وما كتبه لابيدس عن دمشق في العصر المملوكي.

(3) انظر: Arnold Green, the Tunisian Ulama: 1873-1915: Social structure and response to Ideological Currents, Leiden: E.J. Brill, 1978.

الفترة الاستعمارية وفيما بين 1890 - 1907 مواجهتهم وتعاملهم لفترة الإصلاح والتعاون الذي فرض عليهم وأخيراً في الفترة الأخيرة التي تعاون فيها بعض العلماء من أجل تحقيق بعض الإصلاحات.

وجرين يوضح في دراسته مكانة العلماء في السياق الاجتماعي التونسي وكيف أنهم شكلوا عروشاً أو فخوذاً وعشائر تمكنت من السيطرة على السلطة والإدارة في البلاد سواء كانوا يمثلون السلطة مباشرة وهؤلاء غالباً ما كانوا من الأحناف، أو من العلماء الذين كانوا يمثلون التيار العام للسكان وغالباً ما كانوا من المالكية. ولقد اعتمد جرين على سلسلة طويلة من سير هؤلاء العلماء ومآثرهم بلغ عدد من اعتمد عليهم 128 عالماً⁽¹⁾.

أما جوليا كلنسي - سميث فقد درست مواجهة العلماء الجزائريين والتونسيين في القرن التاسع عشر للاستعمار، وكيفية تنظيمهم الرأي العام من أجل المواجهة والرفض والقيام بأعمال الجهاد من أجل نيل الاستقلال. ولقد أوضحت جزئياً كيف أن العلماء يشكلون طبقة من الأعيان ويعدون من رجالات المعارضة الذين يحظون بالشعبية والقبول⁽²⁾.

3 - أدوار العلماء في إعادة تشكيل الحياة العامة ثقافياً وفكرياً وكذلك لعب أدوار سياسية من شأنها تمثل الجماهير لدى السلطات القائمة، وتعد هيئات وجمعيات وروابط العلماء في العديد من الأقطار الإسلامية في فترات تاريخية عديدة من أهم وأبرز الأدوار التي لعبها هؤلاء. وتوضح بعض الدراسات أن العلماء لعبوا أدواراً حديثة كصناع رأي مثل المبادرة بإقامة الصحف أو الأندية أو المنظمات التي من شأنها تشكيل ما يعرف بالمجتمع

(1) انظر ما أورده جرين في المرجع السابق، ص 239 - 287 بالنسبة لتراجم هؤلاء العلماء، وبالنسبة لتقسيمهم إلى مالكية وأحناف ما أورده في ص 289 - 305.

(2) انظر: Julia A. Clancy-Smith, Rebel and Saint: Muslim notable, Populist Protest,

Colonial Encounters: Algeria and Tunisia: 1800-1904, Univetsity of California Press,

1994.

المدني وذلك رغبةً في توجيه وتشكيل الرأي العام⁽¹⁾.

4 - قيام دراسات جديدة تسعى لإعادة بناء شريحة من الحياة الاجتماعية العامة بشكل تفصيلي وذلك من خلال تتبع حياة أسر معينة أو نشاطات شخصيات معينة وربطها بالسياق الاجتماعي الثقافي العام، غالباً ما تسمى هذه الدراسات بـ Prosopography حيث تستخدم كافة أنواع الوثائق والمعلومات والبيانات المتوفرة من أجل تكوين صورة تفصيلية عن تلك الأسر أو الشخصيات بما يساعد على إبداع لوحة مكثفة للحياة العامة في تلك الحقبة. ويظهر أن هذا النوع من الدراسات واعد، ويمكن اعتبار دراسة كدراسة نيللي حنا عن حياة التاجر الحلبي أبو طاقية في القاهرة العثمانية أو دراسة شيلار عن دمشق من الدراسات البارزة في هذا المجال⁽²⁾.

5 - دراسات تاريخية توضح بشكل تفصيلي الصورة التي يتشكل ويتكوّن على أساسها العلماء وكيف تتم عملية تنظيم وإدارة التعليم التقليدي عموماً. ولعل دراسة جورج مقدسي الكلاسيكية عن «نشأة المدارس في الإسلام» من النماذج البارزة لهذه الدراسات وإن لم تكن ذات منحى تاريخي بحت⁽³⁾. لكن لعل ما قدمه روي متحدة في هذا المنحى يُعد من الأعمال الإبداعية التي تستحق الإشادة، فلقد سعى في دراسته المعنونة: «بردة النبي» أن يقدم وبشكل تاريخي إبداعي صورة عن ماهية التعليم الكلاسيكي في المجتمعات الإسلامية متخذاً من إيران نموذجاً، حيث قدم صورة تفصيلية عما كان عليه وما هو عليه هذا النوع من التعليم القائم على الحجاج والحجاج المقابل والتأويل والشرح والتفسير في تكوين عقل ووجدان الطالب، وإن ما يجري في مراكز تعليمية إسلامية معاصرة مثل قم أو مشهد أو النجف وخلافها يمثل

(1) انظر أيضاً ما ورد في كتاب Bagader, op. cit., pp. 79-140 على سبيل المثال.

(2) انظر: Nelly Hanna, Making Big Money in 1600, The lift and Times of Isma'il

Abutaqiyya, Egyptian Merchant, Cairo, American University, Press, 1998.

(3) جورج مقدسي (محمود سيد محمد)، نشأة الكليات في الإسلام، جدة: جامعة الملك

عبد العزيز 1994.

امتداداً لما مرّ به العديد من العلماء المسلمين الكبار من أمثال الغزالي وابن سينا والفارابي والخيام وغيرهم. ولما كانت دراسة روي متحدة عبارة عن لقاءات وتأملات حرة مع عالم شيعي درس ويُدرّس في الغرب هو «حسين مدرّسي»؛ فإنّ ذلك من إمكانيات المقارنة بين هذا النظام والنظام التعليمي الغربي⁽¹⁾.

ورغم كثرة الدراسات التاريخية وتنوع مناهجها وموضوعاتها فإننا نشهد في الوقت الحاضر أنواعاً جديدة من الدراسات التي تهتم بدراسة العلماء وتهتم على وجه الخصوص بما يقوم به العلماء اليوم ودراساتهم من خلال اعتماد الدراسات الميدانية لعلماء يعيشون بيننا أو يدرسون ذكراهم التي أصبحت تشكل تقاليد تحتل جزءاً كبيراً من حياة الناس العامة. ولعل دراسة جاك بيرك عن الحسن اليوسي⁽²⁾ وما تولّد منها من دراسات لغيرتس وراينيو⁽³⁾ وغيرهم إنما تؤكد على اهتمام علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع ببحث تأثير الشخصية الرمزية في العالم/الصوفي في حياة المجتمع. فالْيوسي كما أوضح هؤلاء، أو بالأصح الصورة الشعبية المؤسّطة للْيوسي ووجدان بعض سكان المغرب جعلته يمثل رمزاً مهماً لأساليب التعامل مع هيمنة الدولة أو السلطان، بالإضافة إلى أنه أضحي يجسد روح المقاومة والجهاد وتوحيد البلاد وتماسك أهلها من خلال التأكيد على بعض المفاهيم الدينية الشعبية مثل البركة والتأييد الإلهي والنسب المقدس وما إلى ذلك.

وما قدمه جيلسينان عن حركة سيدي الراضي في مصر وكيف أن الصوفي الحديث المستنير يمكن أن يشكل تنظيمياً يهدف لإخراج البلاد والعباد

(1) انظر: Roy Mottahedeh, The Mantle of the Prophet: Religion and Politics in Iran, N.Y. Pantheon Books, 1985.

(2) كتبت كتب عديدة عن الحسن اليوسي لعل أهمها:

Jacques Berque, Al-Yousi: Problemes de la culture marocaine, Hague: Mouton, 1958, Clifford Geertz, Islam Observed, New Haven: Yale, University Press, 1968.

(3) Pail Robiniow, Symbolic Domination: Cultural reform and historical Change in Morocco, Chicago: Chicago University Press, 1975.

من غلواء التخلف والفقر والعمل على مقاومة الاستعمار والعمل على تحقيق النجاح الاقتصادي والسياسي لأفراد المجتمع مستخدماً دوافع دنيوية حديثة في سياق رموز زهدوية صوفية⁽¹⁾.

وهناك من جهة أخرى ما قدمه إيكلمان في دراسته: «المعرفة والقوة» حول حياة «عالم/قاضي» بربري من وسط اجتماعي ريفي متواضع. فالدراسة المذكورة وإن انطلقت من فكرة روي متحدة⁽²⁾ إلا أن إيكلمان اعتمد على تتبع واقع هذا العالم الاجتماعي وبيئته الثقافية التي درج فيها والمعهد الديني الذي تدرب فيه ليوضح كيفية تكوينه للقيام بمهامه الاجتماعية. إضافة إلى ذلك درس إيكلمان منزلة ومكانة هذا القاضي الاجتماعية كما وجدها ميدانياً. وقد أكدت الدراسة جملةً من الأمور الهامة لعل من أبرزها: كيف أن هذا النوع من التعليم التقليدي لا تزال جذوره قوية في الأوساط الريفية وأن المسجد وحفظ القرآن يلعبان دوراً بارزاً في تشكيل القدرات والمهارات الأساسية ليحتل صاحبهما مكانة مرموقة في وسطه الاجتماعي، فصورة حامل كتاب الله في صدره تجعله صاحب منزلة رفيعة وتقدير خاص.

ويشير إيكلمان إلى أن الطلاب لهذا النوع من التعليم ينشئون تنشئة خاصة عمادها الدراسة الجماعية والاحتكاك الطويل والتلمذة على أيدي أساتذتهم بما يسمح لهم تكوين صورة مركبة للذات والمسؤوليات الاجتماعية والثقافية التي عليهم القيام بها حتى يتمكنوا من لعب أدوار «بارزة» في الحياة العامة. وجزء من هذه التنشئة ما يضيفي عليهم من هيئة ومكانة اجتماعية من أفراد المجتمع وما يفرضه السياق الثقافي العام تقليدياً والذي لعبت في تشكيله ظروف تاريخية عديدة.

لكن وبحسب ما يورده إيكلمان أخذت هذه الصورة في التآكل نوعاً ما،

(1) Michael Gilsenan, Saint and Sufi in Modern Egypt: an essay in Sociology of Religion, Oxford: Clarendon 1973.

(2) أورد ديل إيكلمان هذا في كتابه، انظر: Dale Eickelman, Knowledge and Power in Morocco: The Education of a 20th country notable, Princeton, University Press, 1985.

إذ احتل التعليم الحديث مكانةً أرقى في الحياة العامة مع توارى وتخلف التعليم في المؤسسات الدينية عن التعليم العصري مما أدى إلى ظهور إشكالات جديدة بخصوص المكانة الاجتماعية التقليدية جعلها تحتل منزلة أدنى وتواجه تحديات جديدة تنم عن اختيارات شخصية ومؤسسية للأدوار الدينية.

ولقد قدم ريتشارد أنطون في دراسته «الواعظ المسلم في العالم الحديث»⁽¹⁾ والذي أنجزه ميدانياً عن قرية أردنية «كفر الماء» التي قدم عنها صورة تفصيلية درس فيها تنظيمها الاجتماعي التقليدي وكيف أن هذه القرية بسبب التحولات الكبرى التي طالت المملكة الأردنية الهاشمية الحديثة التأسيس قد انفتحت بالضرورة على عدد كبير من هذه التغيرات الاجتماعية بما جعل حياتها التقليدية أمراً من الماضي.

أدى الانفتاح وأدت التحولات الاجتماعية إلى إعادة صياغة مفهوم الدين وما يلعبه الدين الإسلامي إجمالاً في بيئة القرية المحلية. فبعد أن كانت القرية بمنأى عن المعرفة والتعليم الديني تمّ بناء جامع فيها ودخلتها المدارس مما ساعد على مزيد من التواصل مع القرى المحيطة وتوسعت الصلات الاجتماعية والثقافية الحديثة بين سكان القرية أنفسهم ومع من حولهم مما أدى إلى إحداث تغييرات جذرية عميقة أدت إلى زعزعة العديد من الأشكال التقليدية لتحل محلها معتقدات وأفكار أقرب إلى الدين الإسلامي الصحيح!

استتبع وجود مسجد جامع يؤدي فيه سكان القرية صلاة الجمعة، ظهور فرصة للشيخ لقمان بن الحاج محمد وهو من أعيان القرية وله مكانة مرموقة؛ إذ أقبل على لعب دور الواعظ والإمام الخطيب للجامع. لقد بذل الشيخ لقمان جهوداً فردية كبيرة ليعلم نفسه ما يكفي لارتقاء منبر الجامع ووعظ الناس وإمامتهم وهو أمر لقي تشجيعاً وتقديراً من طرف سكان القرية إضافةً إلى أن

(1) انظر: Richard Antoun, Muslim Preacher in the Modern World: A Jordanian Case

Study in Comparative Perspective, Princeton University Press, 1989.

خطبة الجمعة شكّلت حدثاً هاماً في حياة الفرد.

لقد مرّت قرية كفر الماء بتحوّلات كبيرة منذ 1952 عندما بدأ الشيخ لقمان يلعب دور القيادة الدينية فيها، فقد زاد سكانها عام 1984، سنة إجراء الدراسة، إلى أكثر من الضعف ليصبحوا حوالي 4800 نسمة وأصبحت أقرب إلى البلدة منها إلى القرية فدخلتها العديد من التغيرات منها المواصلات والأجهزة الحديثة مما مكنها من التواصل مع المحيط الحضري لها وتكونت فيها بعض المؤسسات الخيرية وبعض نشاطات ما يمكن أن نسميه بالمجتمع المدني، وهذه أمور انعكست في الموضوعات التي تناولتها خطب الجمعة التي تظهر تفاعلاً مع الواقع الاجتماعي، وتمكن الخطيب من استخدام المناسبات التاريخية الإسلامية ليربطها بالواقع المعاش في رمزية مفيدة ومؤثرة. وغدت الخطب مجالاً لمناقشة العديد من الموضوعات الأخلاقية الاجتماعية كالعدل والرحمة والتقوى أو موضوعات تمسّ حياة الناس كالمهجر ولباس المرأة. وارتبطت خطب الجمعة أيضاً ببعض الأحداث العامة مرت بها القرية فبعد وفاة أحد أعيان القرية كانت هناك خطبة عن الموت وعذاب القبر. وبعد أن تقدمت امرأة إلى الإمام تشتكي بعض أقاربها كانت هناك خطبة حول صلة الرحم والتراحم والتعاون بين الأقارب. واستخدمت المناسبات الإسلامية كحلول رمضان والعام الهجري الجديد أو غزوة بدر أو الإسراء والمعراج وغيرها من أحداث في التقويم الإسلامي للحديث الدلالي والربط مع ما يدور في العصر الحديث.

ولقد حلّل المؤلف مصادر الخطب، فوجد أنها تعتمد إما على تفسير آيات قرآنية أو ذكر بعض الأحاديث أو سرد مقاطع من السيرة النبوية في مصادرها العديدة أو بالاعتماد على بعض الكتب الإسلامية التقليدية، ويذكر على وجه الخصوص كتب ابن القيم وابن تيمية وغيرهما أو على بعض الكتابات المعاصرة مثل كتابات سيد قطب أو محمد الغزالي أو خالد محمد خالد أو الشيخ كشك وغيرهم. بل إن المؤلف قام إضافةً إلى ذلك بتقديم سرد لأهم الكتب الدينية الموجودة في مكتبة الشيخ لقمان والتي كان بعضها

عبارة عن مقررات جامعية لابنه الذي كان يدرس في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وأخرى هدايا حصل عليها أثناء قيامه بالحج والزيارة. وقد زادت تلك الكتب من اتجاهه السلفي الذي كان واضحاً في نصوص الخطب وموضوعاتها.

وسعى المؤلف أيضاً لتقديم تحليل مفصل لبلاغة وأسلوب إلقاء بعض الخطب كما سجلها وربما حضرها مباشرة، محللاً النصوص ومفسراً الرموز والاستعارات المستخدمة ودلالاتها بالنسبة للأوضاع السياسية والاجتماعية الراهنة مما يوضح العلاقة بين ما يقدمه الإمام الخطيب ومتطلبات الحداثة التي غزت القرية وسكانها والتفاعل والتأثير الناتج عن ذلك.

وتوضح الدراسة كيف أن موضوعات الخطب وما يقوم به الإمام من وظائف وأدوار عامة إنما تؤكد على أن القيادة الدينية (ممثلة في الإمام) إنما تلعب دوراً هاماً في حياة القرية بالقدر الذي توليه من الاهتمام بالمجال السياسي أو الخدمة الاجتماعية ومشاركة الأهالي في الحياة الاقتصادية والسياسية على مستوى القطر، وأن هذه المشاركة عادت على القرية بالخير العميم. ولعل خطب الحث على أداء فريضة الحج والمشاركة في تنظيم حملة الحج مما زاد في رفع الروح المعنوية وترابط وتعاون الأهالي وزيادة الانسجام بينهم.

أما البعد السياسي الواضح في خطب الجمعة فإنه في نظر المؤلف جعل المسجد يصبح مركز نشر أفكار سياسية تتجاوز الحزبية السياسية التقليدية. إذ تقدم هذه الخطب برامج وأفكاراً سياسية ذات طابع ديني يشكل اتجاهاً هاماً في الحياة السياسية، يعتمد على تقديم تفسيرات جديدة للمفاهيم الإسلامية ويشكل نافذة للفكر السلفي السياسي إزاء الأحداث والموضوعات العامة. بمعنى أن المؤلف يرى أن خطب الجمعة تم استخدامها لأغراض سياسية ولدت ما أسماه بـ «الأصولية» السياسية، أو على الأقل وجدت فيها الأصولية مبتغاه.

ولقد سعى باحث آخر تتلمذ على ريتشارد أنطون إلى تقديم دراسة

موسعة لخطب الجمعة ولكن في سياق حضري، فلقد قام جفني في كتابه «من على منبر الرسول»⁽¹⁾ باختيار مدينة «المنيا» المصرية لدراسة وتحليل خطباء وخطب الجمعة في تلك المدينة. وليتم ما سعى لدراسته صنف الخطباء اعتماداً على ما يقدمونه من خطب من حيث المضمون وأسلوب الإلقاء ونوعية التأهيل الذي حصلوه والجمهور المتلقي. وفي هذا المقام يوضح جفني أنه رغم أهمية خطبة الجمعة إلا أنها لا تقتضي بالضرورة القدرة على مواجهة الجمهور والتأثير فيهم وإقناعهم وأداء جيد خطابياً، فهذه المهارات قد لا تتوافر أحياناً في عالم كبير، لكن من توفرت فيه وشهد له بالدين، وعلى الأقل بشيء من المعرفة الدينية، إضافة إلى قبوله رسمياً أو شعبياً، بناء على نوعية المسجد الذي يمارس فيه الخطابة، إذ هناك ما يُعرف بمساجد الأوقاف/الحكومة وأخرى مساجد خاصة، إذا ما توفرت كل هذه المتطلبات عندها يصبح الشخص خطيباً. ويقسم جفني الخطباء إلى ثلاثة أصناف: الواعظ العالم والواعظ الصوفي والداعية الثوري. وتختلف أساليبهم في استخدام البلاغة ودرجة التأثير وقدرتهم على الإقناع، فبعضهم يستخدم الفصحى ويعتمد أسلوباً راقياً رفيع المستوى مما قد لا يكون مفهوماً، أو على الأقل سهل الفهم لعامة الناس، ومنهم من ينحو بالخطبة نحو استخدام العربية المبسطة وربما لا يستنكف من استخدام العامية زيادةً في التواصل وضماناً للوضوح وحسن متابعة الجمهور له. وهناك من يعتمد على الاقتباسات والاستشهادات القرآنية والأحاديث النبوية ومناقشة بعض الموضوعات الدينية بقدر كبير من التفاصيل الفقهية أو التفسير، لكنه غالباً ما يتجاهل الواقع المعاش، بينما يركز آخر على تناول موضوعات روحية أو تزهدية مركزاً على أمور الآخرة وفضائل الأعمال الصالحة، على أن هناك من يعتمد على تناول أبعاد حياة الناس والتعليق على الحياة السياسية العامة ومن ثم إثارة الرغبة عند جمهور المؤمنين من الحضور للتفاعل مع المتغيرات والأوضاع السياسية القائمة في المجتمع، وأحياناً كثيرة من منظور معارض رافض لما عليه الاتجاه العام.

(1) انظر: Patrick D. Gaffney, the Prophet's Pulpit: Islamic Preaching in Contemporary Egypt, University of California Press, 1994.

ويختلف الحضور بحسب الموضوعات التي تتناولها الخطبة وأساليب الخطابة والولاء الشخصي لإمام ما. فهناك مساجد يميل إلى الذهاب إليها من هم من الطبقة العليا أو الوسطى، وهناك مساجد للعمال والطبقات الفقيرة، وتعود أسباب هذه الاختيارات لموقع المسجد ومدى قرب الجغرافي من مكان السكنى أو عدمه أو لأن الخطيب يجيد تناول الموضوعات التي تشغل الحضور وأحياناً تنفس عما يجيش بدواخلهم. ولقد عمل جفني على أن تكون دراسته الميدانية شاملة للأنواع الثلاثة، بوصفها تمثل ثلاثة أنواع من القيادات الاجتماعية: المثقف الديني والصوفي والثوري الملتزم. ولقد أوضح جفني عن طريق تحليل عينات من خطب هؤلاء الخطباء الذين اختار دراستهم بعناية أن خطبهم بالفعل تعكس اختلاف أساليبهم وتنوع اهتماماتهم، إضافة إلى أن ما يدور في خطبة الجمعة يشكل رافداً مهماً للتعليق على الحياة الثقافية والاجتماعية والصناعية والسياسية في المجتمع المصري الراهن، بل إن هذه السياقات تعود إلى فترات تاريخية سابقة تشكلت لفترات طويلة. فدون شك تعد خطبة الجمعة واحدة من أهم وسائط نشر الإسلام والوعي به من ناحية وهي تعد كذلك مؤسسة هامة في تشكيل وتوجيه وإعداد الرأي العام، وهي كذلك تشكل الركيزة الأساسية لتنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية في أشكالها الأولية، فهي المحضن الأساسي لتطوير القيادات الدينية والكوادر التي تنخرط فيها والتي تشكل مادة العمل الإسلامي بشكل عام. ولقد سعى جفني للاستفادة من التاريخ الاجتماعي والتعليقات السياسية على الأوضاع المصرية المعاصرة إضافة إلى دراسة المصادر الإسلامية ليوضح أن هناك صلة قوية بين الخطب الدينية وخاصة خطبة الجمعة ذات النفوذ والتأثير القوي وبين الخطابات السياسية والاجتماعية التي تسود في المجتمع المصري، إذ إن هناك قطاعات واسعة ربما لا تعرف بأهم ما يجري في المجتمع من جدل وآراء وقوانين جديدة إلا عن طريق هذه الخطب.

إضافةً إلى ذلك فإن جهود جفني في تحليل مضمون خطب الخطباء الثلاثة الذين درسهم: الشيخ مصطفى وعثمان وعمر من المساجد التي قام بدراستها تقدم لنا طرْحاً جديداً بخصوص نوعية البيانات التي يمكن أن تكون

موضوع دراسة واهتمام الأنثروبولوجيين. فلقد بدأ بعض علماء الأنثروبولوجيا بدراسة أمثال هذه الخطب للتعرف على كيفية تشكيل الرأي العام وصلتها بالثقافة العامة في مجتمع ما. وما قدمه جفني من تحليلات للأساليب البلاغية والمؤثرات الرمزية المختلفة التي استخدمها واستعان بها الخطباء مهمة للغاية في فهم أساليب الإقناع والموضوعات التي تقنع الجمهور المسلم، خاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار المكانة التي يلعبها المسجد الجامع في يوم عطلتهم الرسمية من تأثير قدسي مهم. إذ يذهب المؤمنون وبأعداد كبيرة لحضور هذه الشعيرة الدينية الهامة وهم مهئون نفسياً لتلقي ما سيقدمه الخطيب الذي ربما كانت شهرته وقدرته على التواصل والإيصال الإبلأغي هي التي جعلتهم يختارون مسجده على وجه الخصوص، ومن ثم قبول هذه الآراء وربما العمل على تحقيقها في حياتهم المعاشية.

لقد ظهرت دراسات عديدة أفادت من هذه الأنواع من تحليل الخطاب الديني⁽¹⁾ وهي تستخدم أهم النظريات وأساليب التحليل في نقد الخطاب السياسي الديني ذي الطبيعة الإيديولوجية التعبوية. ولعل ما قدمه طلال أسد⁽²⁾ في تحليله لبعض الخطب المنبرية مثال على ذلك. إضافة إلى ما قام به الفندي⁽³⁾ في السعي لمحاولة رصد أنواع الاحتجاج والمعارضة السياسية الإسلامية من خلال أمثال هذا التحليل تصب في نفس المسار.

(1) انظر على سبيل المثال:

Madawi Al-Rasheed «God, the King and the Nation Political Rhetoric in Saudi Arabia in 1990's» Middle East Journal 50, No. (3), 1996, pp. 359-71.

Madawi Al-Rasheed, «Saudi Arabia's Islamic Opposition Current History», وكذلك: no. (597), 1996, pp. 16-22.

(2) انظر: Talal Asad, Genealogies of Religion, Discipline and Reason of Power in Christianity and Islam, Washington D.C. John Hopkins University Press, 1993, pp. 200-238.

(3) انظر: Mamoun Fandy, Saudi Arabia and the Politics of Dissent, N.Y., Macmillan, 1999.

على أننا كنا نود لو أن جفني أو من تلوه ذكروا لنا مدى التأثير الفعلي لهذه الخطبة على جمهور المؤمنين الذين يحضرون هذه الخطب ويستمعون لتسجيلاتها بشكل تفصيلي، لا يقوم فقط على مجرد الثناء أو الشجب للأفكار التي يوردها الخطيب. كذلك تقديم معلومات عما إذا كان بالإمكان البرهنة على العلاقة المزعومة بين هذه الخطب، التي غالباً ما تلهب حماس وخيال وطموحات الجمهور، وسلوكيات هذا الحضور الفعلية ليتضح لنا كيفية تمثل «ما دفعهم إليه» الخطيب في شكل إضراب أو اعتصام أو مسيرات أو أفعال سياسية محسوسة.

إن التأكيد على أن لهذه الخطب أهمية اجتماعية أمر يبدو أنه مسلم به، وربما كان كذلك من المسلمات القول بأن خطبة الجمعة تلعب دوراً مركزياً في حياة المجتمعات المسلمة، كما هو الحال عند أبناء الديانات الأخرى، وأنها تشكل منبراً مهماً أحياناً لتقديم وجهات نظر وتعليقات «رسمية» على بعض الأحداث الراهنة، لكن الزعم بأن هذه الخطب تشكل الركيزة الأساسية لنمو التطرف الديني أو تولّد الإسلام السياسي - بالمعنى الغربي السائد - يظهر أنه أمر مبالغ فيه كثيراً، إذ إن هناك مئات الجوامع التي تتميز بالمحافظة والتقليدية إضافة إلى تدخل وزارات الأوقاف في العديد من البلدان الإسلامية بتوجيه نوعية الخطب التي يمكن تقديمها من على المنبر ومن ثم تقديم خطب جاهزة أو معدة سلفاً للمناسبات الدينية المختلفة.

لكن ورغم كل هذا فإن خطبة الجمعة كمؤسسة تبقى نوعاً من الملتقى الفكري العام لجماهير المسلمين⁽¹⁾ وهي دون شك تستحق الدراسة. وما قدمه كل من أنطون وجفني إنما يعد بدايةً لمشوار طويل يعطي هذه المناسبة بعض ما تستحقه من الاهتمام والدراسة، وهي كذلك مناسبة مهمة لتوجيه الأنظار من

(1) ونقصد بمؤسسة أي أنها تتجاوز الخطباء أو العلماء الذين يتحدثون به على المنابر، فهي ستبقى بغض النظر عن من يقوم بالخطبة وفي الوقت نفسه بوصفها كذلك قد يستخدمها بعض القادة والزعماء لإعلان مواقفهم الرسمية كما هو الحال في خطب جامعة طهران حيث استخدم مرشد الثورة وغيره هذا المنبر لإعلان آراء سياسية.

خلال أمثال هذه الدراسات الأنثروبولوجية - وإعادة التفكير حول أهمية ودور العلماء والخطباء في تشكيل وعي وضمير الأمة ومن ثم فإن إيلاء هذه المؤسسات الاهتمام الذي تستحقه وإعادة الاعتبار لمكانة ودور العلماء الاجتماعي والفكري غداً أمراً ملحاً في حياتنا المعاصرة التي هي في أمس الحاجة إلى فكر مستنير يعرف كيف يوجه طاقات وجهود وعواطف وجمهور المصلين لما فيه خير الأمة ورفيها.